

(المحاضرة الخامسة)

ثانيا : أنواع المبادلات التجارية وحواضرها

لم تكن صادرات بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي تقتصر على البضائع المغربية فحسب خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بل كان هناك أيضا بضائع مصدرها المشرق وحوض بحر الروم التي حملها التجار العرب عبر الطرق الصحراوية المتعددة، ومن السلع الأساسية التي حملها المغاربة إلى بلاد السودان الغربي نذكر الحبوب والتمور التي كانت نادرة في تلك الأصقاع البعيدة، وقد ذكر البكري في كتابه المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب أن مدينة أودغشت " كان يجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد، وخاصة من ورجلان وقسطيلية، كما كان يحمل إليها النحاس المصبوغ والثياب المصبغة بالحمراء والزرقة "، وعلاوة على ذلك كان المغاربة يصدرون إليها أيضا الجلد المدبوغ الذي تنتجه زويلة وغدامس ومدينة فاس، إلى جانب الأواني الفخارية التي صُدرت إلى أودغشت وذلك منذ عهد الدولة الرستمية، وذكر صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (الإدريسي) أن التجار كانوا يدخلون بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطر من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار والعطر ...، وقد كان يحمل النحاس المسبوك من مدينة إيجلي، الواقعة في منطقة السوس، إلى بلاد السودان أيضا، أما مدينة سجماسة فقد كانت القوافل تتجه منها إلى أودغشت وغانة ومنطقة تكرور بأنواع التمور والزبيب والبضائع المصنوعة يدويا ومحليا في سجماسة والمتمثلة في المنسوجات، وقد ذكر كتاب البلدان للحموي أن الملح وخشب الصنوبر كانا يحملان من سجماسة إلى غانا بالإضافة إلى الزجاج الأزرق وأسورة النحاس الأحمر وحلق الخواتم المصنوعة من النحاس، وأغلب الظن أن هذه السلع جلبت أصلا من المشرق إلى بلاد المغرب والتي حملها المغاربة بدورهم إلى بلاد السودان، فيما يذكر صاحب الاستبصار (مجهول) أن بلاد السودان كانت تستورد أيضا سמיד الأرض (L'angrés) من مدينة فاس، وبما أن أهل السودان كانوا يجففون السمك

والحيتان التي يصطادونها من النيل ومن نهر السنغال والنيجر وكانت هذه قوام معيشتهم، كان الملح من أهم السلع التي كان يجلبونها من بلاد المغرب لانعدامها في مناجمهم، وفي ذلك يقول البكري (المغرب) : " ومن غرائب تلك الصحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى (من وادي درعة إلى بلاد السويس) وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوما، تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونها من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة ... ويحمل هذا الملح إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان، والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة "، ويتضح هكذا من نص البكري أن الملح لم يكن في الحقيقة متوفرا كفاية في بلاد المغرب وإنما كان التجار المغاربة يستبدلونه ببعض سلعهم في الصحراء الكبرى ومن ثم ينقلونه إلى إمارتي غانا وكوكو، وكان ثمن ما يحمله الجمل الواحد من الملح إلى غانا ما بين مائتين أو ثلاثمائة دينار، وأحيانا كان يباع الملح بوزنه ذهباً، أو ربما بوزنيه من الذهب أو أكثر على قدر كثرة التجار وقتهم حسبما يذكر ابن حوقل في صورة الأرض، وكان هذا الملح يحمل إلى بلاد السودان عن طريقين، الأول صحراوي كما ذكرنا، والثاني بواسطة السفن عبر المحيط إلى سواحل السودان الغربي، فقد ذكر الإدريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أن السفن كانت تسير لبلاد السودان الغربي، ثم تدخل نهر السنغال إلى دواخل بلاد السودان الغربي حتى سلا وتكرور وغانة، ومقابل تلك السلع التي كان بلاد المغرب يصدرها إلى السودان كان هو يجلب الذهب بينها منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وقد بلغت هذه التجارة أوجها في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حيث كانت قوافل ذهب السودان الغربي تنطلق من ورجلان إلى كاغو بمالي وقوافل أخرى من سجلماسة إلى أودغشت فيجلب منها الذهب الخالص خيوطا مفتولة، وكان ذهب أودغشت من أجود أهل الأرض وأصحه حسب ما ذكر البكري (المغرب).

وعلى غرار التجارة المريحة التي كانت بين بلاد المغرب والسودان الغربي كان هناك نوع آخر من التبادل بين القطرين الشمالي والجنوبي تمثل في جلب العبيد كسلعة هامة في

خط متواز مع تجارة الذهب، وكان وراء هذه الظاهرة الضرورية العسكرية والاقتصادية التي ازدادت مباشرة بعد انتهاء عمليات الفتح وبداية الاستقرار، فترتب على ذلك عملية التعمير مما اضطر إلى تعدد مصادر توريد اليد العاملة كما ذكر الجنحاني في كتابه المغرب الإسلامي.

لقد شاع في بلاد المغرب ظاهرة جلب الرقيق من مناطق متعددة، وكانت بلاد كانم من بلاد السودان المنبع الرئيسي لتلك التجارة ابتداء من القرن الرابع الهجري، أهم فئات رقيق السودان، التكرور السنغاليون والصونكي الغيانيون والسونجائي من كاوكاو، أو الساءو وهؤلاء كانوا يجلبون من كانم نحو لمطة وإلى سجماسة ثم من هنا يوجهون إلى المغرب الأقصى وإلى الأندلس أو إلى ورجلان والجريد ثم إلى إفريقية وغازان وطرابلس وبرقة ومصر ثم إلى سائر بلاد المشرق كالعراق والشام وغيرها، وكان هؤلاء العبيد يوجهون إلى العمل في الحقول والمناجم وحراسة القوافل التجارية ويكفي أنه كان تاجرا من أودغشت يملك نحو ألف خادم من السود، علاوة على أن حكام بلاد المغرب كانوا يتخذون من العبيد السود حراسا شخصيين ابتداء من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ومثالا على ذلك أن الأغالبة اعتمدوا على الزنجي في المجال العسكري بعد أن استغنوا عن الجندي العربي، كما فعلت أيضا بني مدرار وكذلك العبيديون إذ اتخذ عبيد الله المعدي مباشرة بعد بيعته العبيد من السودان والروم الصقالبة كما ذكر "العريزي الجؤذري" (سيرة العزيز الجؤذري) ولا يختلف المالكي (رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية و.....) والمقريري (كتاب الم..... الكبير-) تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية-) في استخدام هذه الدولة للسودان ضمن عساكرهم، وذكر ابن عذارى، في البيان المغرب، أنه اجتمع للزيريين في أواخر القرن الرابع الهجري الألوفا من السودان وزعوا على مختلف الدواوين، وقد أشار الجغرافيون أمثال القوافل المزودة بالعبيد، وهكذا كانت تجارة الرقيق رائجة لما ندرس أرباح وأموال طائفة وقد اتسع نطاقها في آخر عهد بني فضل الغزو في البحر أو ما اصطلح عليه بالقرصنة، فضلا عن ذكر البكري لاستجلاب السودانيات من أودغشت

واستخدامهن كطباقات تباع الواحدة منهن بمائة مثاقيل. وإلى جانب هذه التجارة الرائجة كان أيضا هناك يجلب من بلاد السودان الأحجار الثمينة والعنبر وريش النعام والسب من كوار بالكانم وكان بالغ الجودة ويتجهز به إلى سائر البلاد ومنها بلاد المغرب حسب ما ذكر الإدريسي (نزهة المشتاق ج 1)، وكذلك أنياب الفيل وأنواعا من الحيوانات ببلاد السودان كالفيلة والزرافات. وهكذا نتيجة للتجارة العابرة للصحراء أصبحت المدن المغربية مخازن لبضائع بلاد السودان وكانت توزع باتجاه صقلية والمشرق الإسلامي من شواطئ إفريقية، وباتجاه الأندلس وبلاد الإفرنج عبر مضيق جبل طارق وكان الذهب من أعظم تلك التجارة الرائجة إذ ضلت المتاجرة به بهذا الشكل لستة قرون في العصور الوسطى.